أين أخفي الرماد؟

الليل الأسود بظلامه وأحزانه.. وهذه الليلة أشد عتمة.. أويت إلى فراشي.. ظللت لا أبصر سوى كتل الظلام.. السكون قاتل، والجمود مجنون.. كم الساعة الآن؟.. لعلها الواحدة بعد منتصف الليل.. أربع ساعات أسترحم النوم.. ويأبى.. كأنها أربع سنوات.. الصفير في أذني، والفحيح من حولي يرهباني.. إن هذا يحدث في ليلتي هذه.. بل تكرر أكثر من خمسين ليلة في غربتي.. بين الرمال والهضاب والتلال.. كأنها دهر.. لا أستطيع أن أبرح هذه البقعة.. لا بجسدي ولا بخيالي!.. فقد ضمتني إليها.. وقبضت خطاطيفها بعظامي.. سجين المقادير.. والحاجة!!

منذ ست ساعات.. في المدرسة.. كنت أهرول وأقفز.. و«حسن» عامل المدرسة الوحيد.. يقهقه بأعلى صوته.. يرمقني بنظرة دهشة غير مصدق.. ولكني لم أعره أدنى اهتمام.. والزملاء يضحكون ويتعجبون.. وظللت أجري وأتقافز.. والعرق يتصبب من كل جسدي.. ولا أعرف لماذا كنت أبدو على ذلك النحو..

واستمرت قفزاتي.. خلف سور المدرسة.. كنت أرى شبح الجبل يكبر ثم يصغر.. ويكبر ثم يصغر!.. أتحكم فيه وأسخر من ضخامته.. أستطيع أن أغمض عيني فيتلاشى.. ويتلاشى كل شيء! واستمر حسن يقهقه ويصرخ، بينما يشير ناحيتي.. وأيضًا، لم أحفل به..

بالأمس، كنت أغني بصوت أنكر من نهيق الحمير.. ومن حولي طلبتي يرشقونني بنظرات التعجب!.. وفي عيونهم حزن بريء..

يسكن معي فأر.. أو بالأحرى أنا الذي أسكن معه.. فهو الذي استقبلني منذ أتيت.. وأعلن عن وجوده منذ أطيح بي إلى هنا.. يشاركني طعامي.. وكل معيشتي.. لكنه ينفرد بقرض ملابسي.. ويعبث بكل ما يصادفه.. ويجري هنا وهناك.. وكأنني أسمعه يضحك.. إنني أخاف هذا الفأر ومن الفئران جميعًا.. ومن كل تافه حقير.. وما زال يقرض ملابسي بالصندوق.. تقلبت.. انبطحت على وجهي ويدي تحت الوسادة.. اصطدمت بورقة.. سحبتها.. اعتدلت.. الظلام جاثم على عيني فكيف أقرأ.. علبة الثقاب في سترتي.. قمت لأحضرها.. اصطدمت بأحد المقاعد فانقلب.. وكدت أنقلب معه.. تساندت على المنضدة المجاورة.. أحسست بشواربه تداعب قدمي.. فزعت.. لكنه أعتقني ليعود إلى قرض ملابسي.. اطمأن قلبي؛ لأنه بعيد عني.. أخرجت العلبة، وأخذت ورقة من تحت الوسادة.. أشعلتها وجلست أقرأ.. إنه خطاب أخيها.. قرأت سؤاله.. كادت تلسعني النار.. وعاد الظلام أشد حلكة.. رددت السؤال عدة مرات.. إنه يسألني عن موعد الخطبة.. سؤال وجيه وملحٌّ.. لكن متى بالفعل؟.. بل.. كيف؟.. وعلا صياحي:

- الخطبة.. إنها ستموت ليلة الزفاف..

لا ريب أنه حلم جميل.. وما هي إلا طيف.. وسرعان ما أفيق على صخرة الواقع الفولاذية.. سرعان ما أرتد إلى الحقيقة.. قطع هذياني صوتٌ:

- ما هذا؟!

وصوت آخر.. وجلبة خارج مسكني.. وصوت ثالث:

- لا شيء.. لا بد أن الأستاذ يحلم.. ولا يليق أن نسبب له الإزعاج.

أَصوتُ إنسانٍ ما سمعت؟!.. أَهنا تعيس الحظ مثلي؟! إننا معشر التعساء.. لفظتنا الدنيا إلى هذا الوادي السحيق.. وجهها آخر ما رأيت.. مع أني ما رأيت وجه الملاك.. لكنني أؤكد أنه أكثر جمالًا وبهاء وفتنة.. خفق قلبي لابتسامته.. ويا لها من ابتسامة! تلك التي تذكرني بالرحيل.. نعم.. إنها ابتسامة الوداع.. لحظتها رأيت الموت مخيمًا على محياها..

- ستموت.. وترحل إلى العالم الآخر.. إلى جنة الخلد دوني.. أجل.. فقد عشت معها أطول من عمري.. أطول وأبقى.. إنها بهاء الحياة ومنبع السحر فيها.. وهل.. هل أبكي على هذا الجسد المسجى؟.. وكيف تكون الحياة دونها؟!

لكني أسمع نهنهات آتية من أعماق قلب.. وآهات لا أعرف مصدرها.. لا أستطيع أن أرى الملائكة، ولكنهم حول جسدها الطاهر.. يبكون من أجلي.. أتحدى الأيام والنسيان أن يمحواها من ذاكرتي.. أتحداهما على ألا يرن صوتها العذب في سمعي.. وأتحدى الزمن أن ينتزعها من مشاعري.. وأعاهدها على أن تهتف بها جميع نبضات قلبي.. أشعلت ثقابًا آخر.. أنغام حالمة تتردد.. تتصاعد.. تتباعد.. تتلاشى.. وضعت يدي تحت الوسادة.. تحسست هنا وهناك.. دق قلبي بعنف.. قذفت بالوسادة جانبًا.

سألت نفسي:

- أين الورقة؟! أين اللوحة؟.. أين؟؟!

بحثت وفتشت.. أشعلت أعوادًا.. انقلبت وانكفأت.. أشعر بالألم.. تأملت بقايا الورقة المحترقة.. إنها هي.. لقد احترقت.. أحرقتها بيدي.. قتلتها وأمست رمادًا.. وقمت من فوري ألمُّ أشلاءها حتى لا تذروها النسمات.. أو يتهادى الفأر في الاستهزاء بي فيعبث بالرماد.. جمعته..

وكانت حيرتي.. فأين أُخفي الرماد؟.. أين أُخفي الرماد؟؟.. أين أدفن الأشلاء؟.. وبعد.. أما لها من ذكرى؟!.. تذكرت خصلة شعرها التي وهبتْها لي.. جذبت حقيبتي من تحت سريري.. فتحتها.. تحسست في جيوبها.. وحمدًا لله فقد وجدتها.. أمسكتها بكلتا يداي فسقط الرماد.. انتفضت فسقطت الخصلة.. البقية الباقية.. جعلت أفتش عنها في الظلام، فقد فرغت علبة الثقاب.. أمسكت ذيل الفأر، فارتج قلبي.. هرولت.. خرجت من المسكن أصرخ.. ومرة أخرى علا صياحي:

- انتظر أيها العنيد اللعين.. انتظر أيها الماكر الفاجر.. سأتبعك أينما ذهبت.. ألا تدع لي الذكرى الوحيدة؟

يا لتعاستي وقد أضناني السباق!.. سحقتني الهزيمة.. جلست على صخرة أندب حظي.. وأصررت على أن أموت في هذا المكان.. في هذه البقعة النائية.

وبعد لحظات أو ساعات لا أذكر.. أحسست بيد تجذبني.. وصوت:

- الأتوبيس يا أستاذ.. أنسيت يوم السفر؟!! قم فسوف أحمل حقائبك!!..

وتمتمت:

- إلى أين؟؟.. إلى من؟؟..

وكيف أذهب؟ كيف؟! وأدع ذكراي لهذا التافه يعبث بها.. ونظرت إلى هذا الشيء، وقلت له:

- ألم تصادف فأرًا يحمل ذكرى ويعبث بها؟..

ولم أسمع الجواب.. وقلت أيضًا:

- اذهب.. فلن أسافر.. سأموت هنا مع الذكرى..

* * *